عام 2002 قال الحريري لسيديّ عنجر: لكم أيدٍ بيضاء علينا
عام 2005 مقابر عنجر تؤشر الى انقلاب الزمن

الثلاثاء, 06 ديسمبر, 2005 –البلد 2005/12/6

هل من علاقة بين نبش المقابر الجماعية في منطقة عنجر من جهة وبين سقوط طرح المطالبة بمحكمة دولية في الجلسة الاخيرة لمجلس الوزراء، كما ظهور الرواية الداحضة للتحقيق الدولي على لسان الشاهد السري هسام هسام، من جهة اخرى؟ تجيب مصادر مطلعة على هذا السؤال بالقول: تصوروا هذا السيناريو. تجتمع الحكومة في جلسة مقبلة، في مقر رئاستها في السراي الكبير بالطبع، وعلى جدول اعمالها البحث في قضية المقابر المكتشفة. يجري نقاش حول الوقائع والجوانب والمسؤوليات، وتعلو اصوات مطالبة بالمساءلة القانونية حول الموضوع. ولان القضية واقعة من دون لبس تحت باب توصيف القانون الدولي بجرائم الحرب، او الجرائم ضد الانسانية، يقفز الى الواجهة اقتراح بأن تعمد الحكومة فوراً الى وضع مشروع قانون يحال الى المجلس النيابي بصفة المعجل المكرر، ويجيز انضمام لبنان الى محكمة الجزاء الدولية، عندها يجتمع الوزراء الشيعة، ولا يتراجع وزراء الاكثرية النيابية والحكومية. ينسحب الاوائل من الجلسة ويكمل الاواخر النقاش، ويصدر المشروع. بعدها وفي جلسة متطورة للمجلس لنيابي، وفي شكل مخالف لرأي الاقلية، تماماً كما حصل في موضوع المجلس الدستوري يوم الاربعاء الماضي، يتحول المشروع قانوناً، ويصير لبنان منضماً الى محكمة الجزاء الدولية، خاضعاً لأحكامها ومشمولاً بصلاحياتها الثلاث: مقاضاة جرائم الابادة وجرائم الحرب والجرائم ضد الانسانية.

بعد هذا التاريخ يصير في امكان أي مواطن لبناني أو أي هيئة مدنية معنية او متضررة او ذات صفة او مصلحة، أن تحيل مقابر عنجر الى القضاء الدولي. ووسط اهتمام دولي معروف الاتجاه، قد تصبح احالة كهذه اولوية وبسرعة قياسية، قياساً الى ما كان يتوقعه المعنيون هنا، أو حتى قياساً الى وتيرة عمل محكمة الجزاء الدولية نفسها. ترسم الأوساط المطلعة هذا السيناريو لتلفت الى أمرين: أولهما أن مسألة المحكمة الدولية المختصة بقضية اغتيال الرئيس رفيق الحريري، والتي اعتبر البعض انه أخرجها نهائياً من باب علامات الاستفهام حول نتائج ميليس، قد تعود بقوة من طاقة علامات الاستنكار حول نتائج الحفر والنبش في عنجر. وعلى ضوء هذا الاحتمال، يفهم التناقض المرصود في اليومين الماضيين، بين تأكيد مسؤولين في "حزب الله" وحركة "أمل" على طي موضوع المحكمة، وبين التأكيد المناقض للنائب سعد الحريري قبل يومين، على كون هذه المسألة غير خاضعة للمساومة بالنسبة اليه. أما الأمر الثاني الذي يثيره السيناريو السابق، فهو أن ثمة فارقاً كبيراً، في القانون والواقع والصلاحية والنتائج، بين محكمة دولية خاصة لقضية اغتيال الحريري، وبين وضع يد محكمة الجزاء الدولية على قضايا جنائية مختلفة ارتكبت في لبنان، وتقع تحت صلاحياتها المنصوص عنها في "نظام روما".

والفارق بين الاثنين يستتبع سؤالاً آخر، من نوع: كيف يمكن العبور من صلاحية محكمة الجزاء في جرائم حرب، الى صلاحيتها هي نفسها أو سواها في قضية اغتيال الحريري؟ وهذا السؤال تتركه الأوساط المطلعة معلقاً، في انتظار استكمال الشق الآخر من السؤال الأول: وما العلاقة بين حفريات عنجر وظاهرة هسام هسام؟

للاجابة عن هذا السؤال، تعيد الأوساط ذاتها الباحثين عن الحقيقة، الى مسلسل الضربات المتبادلة فوق رقعة الشطرنج اللبنانية منذ أكثر من عام. حتى ليمكن القول ان ثمة حركة "بينغ بونغ" سياسية اعلامية وأمنية عنيفة، تجرى بين معسكرين أساسيين على الأرض اللبنانية. فمنذ مطلع أيلول 2004 باتت وتيرة التناوب في اللكمات المسددة من الطرفين، ايقاعاً ثابتاً لمواعيد الأحداث في لبنان. القرار 1559 ضربة أولى من جانب أول، قابلها التمديد الرئاسي ضربة مقابلة. حتى القول بالعكس لجهة توقيت الضربتين، لا يلغي مبدأ تناوبهما. بعدها تقرير الأمين العام للأمم المتحدة حول آلية تنفيذ القرار، قابله تشكيل حكومة الرئيس عمر كرامي واعتذار الحريري في حينه. واستمرت حركة التناوب، والبعض يقول انها كبرت

وتعاظمت وازدادت خطراً، خصوصاً بعد دخول بعض الأطراف المعنيين في حسابات بالغة الدقة والحساسية، انطلاقاً من لبنان والى خارجه، داخل سورية، وداخل العراق وعلى مستوى المنطقة.

هكذا مع مطلع العام 2005 صارت لعبة البينغ بونغ اللبنانية دموية بالكامل. فسقط الحريري وآخرون ووقعت التفجيرات المتعددة، وبين كل ضربتين كانت قرارات دولية وتقارير ادانة وخطوات بعضها معروف وبعضها الآخر متروك لعقود رفع السرية عن وثائق الدول الكبرى وأرشيفات اداراتها الأمنية والسياسية. ماذا يمكن لتلك الأرشيفات أن تكشف بعد عقود؟

تجيب الأوساط المطلعة نفسها بمثلين اثنين: ان تروي تلك الأرشيفات مثلاً العلاقة المباشرة بين تحرك قطع من الأسطول السادس الأميركي الى قبالة شاطئ اللاذقية وبين خطاب الرئيس السوري بشار الأسد المعلن انسحاب جيشه من لبنان في 5 آذار الماضي. كما قد تكشف تلك الأرشيفات بعد عقود ما اذا كانت ثمة علاقة سببية أخرى، بين بدء الصحافة السورية هجومها المفاجئ والعنيف على النائب سعد الحريري قبل أسابيع، وبين سلسلة تطورات أمنية وعسكرية سرية، كان مسرحها متنقلاً بين مدينة طرابلس اللبنانية فالسعودية، فسورية فالعراق، وذلك تحت أعين الأميركيين وعلمهم...

المهم ان المعركة باتت اليوم بين المعسكرين، على طريقة المجالدين الرومان: رجل واحد سيخرج من الحلبة أما الآخر فيخرج من الحياة. ووسط هذا الصراع باتت كل الوسائل على ما يبدو ممكنة ومتاحة، أو حتى مشروعة بالنسبة الى المعنيين. هكذا نجحت دمشق في توقيت توجيهها ضربة هسام هسام، عشية "محادثات" فيينا، ما كاد يؤدي الى ترنح التحقيق وتداعي مسؤوله الأول، من دون اغفال العواقب المتخيلة لمثل هذه النتائج لبنانياً. ونجح المعسكر الآخر في اختيار "توقيت" عنجر ومقابرها، لخلق صورة من "البول بوتية" حول كل قول صادر عن مسؤول سوري أكان شاهداً أو متهماً، في دمشق أو في بيروت أو في أي عاصمة أوروبية أخرى، فضلاً عن "النتائج الايجابية" للرفات المكتشفة في تحويل الأنظار الاعلامية والتقاط الأنفاس وتشديد العزائم والارادات والنيات، لاستكمال المسار والمشروع.

انها المواجهة الشاملة، في شكل معلن، وبضربات "تحت الزنار" باتت متوقعة ومرجحة.

هل يعني ذلك أن ثمة في لبنان من "يلعب بالنار"؟ يعتقد كثيرون ان العكس هو الصحيح. فالطرف اللبناني لم يفعل طويلاً غير تلقي كرات النار. واذا كان ما يظهر تحت أرض عنجر اليوم من علاماتها المزمنة والقديمة، فان ما حفل به العام المنصرم، تحت الأرض وفوقها، شكل تسعيراً غير مسبوق للنار، في شكل تخطى قدرة أي كان على ضبطها، أو ابقائها "داخل الحدود". الأكيد ان الزمن يتغير. وطالما الحديث عن عنجر، والشيء بالشيء يذكر، فالجلي ان الزمن انقلب كلياً عما كان عليه قبل ثلاث سنوات فقط، يوم تحدث الرئيس رفيق الحريري ـ المنتظر حقيقة اغتياله ـ الى سيدي عنجر، السلف غازي كنعان ـ المكتوم حقيقة انتحاره ـ ورستم غزالة ـ الماثل في فيينا "شاهداً" ـ قائلاً لهما:

"يا أخ أبو يعرب، لكم أيد بيضاء كثيرة على هذه البلاد. والشعب اللبناني شعب وفي يذكر اخوانه الذين وقفوا بجانبه في الأيام الصعبة (...) والهدية التي أهديتموها ايانا هي الأخ رستم غزالة، الذي في يوم تعرفه بي قلت لي: "سأعرفك بأخ لي يدعى رستم غزالة. هذا الرجل هو أنا". وقد برهنت الأيام خلال عشرة أعوام، ان كنا في السلطة أو خارجها انكم والأخ رستم كنتم نعم الصديق والأخ الوفي (...) لدي شعور بالاطمئنان والثقة بالمستقبل، والثقة بأن هذا الخط سيستمر باذن الله، بفضل توجيهات سيادة الرئيس بشار الأسد، وبخلفكم الذي نعتز بصداقته ونحن مقتنعون بمناقبيته". انقلب الزمن كثيراً عما كان عليه يوم هذا الكلام في 9 تشرين الأول 2002. وانقلب لأسباب لن تكشفها حقيقة اغتيال الحريري، ولا لغز انتحار كنعان، ولا شهادة غزالة طبعاً، ولا مقابر عنجر بالتأكيد.